كلية أصول الدين بالقاهرة

منهج الدعوة الإسلامية في ضوء القرآن الكريم

بقلم

أ.د.

عبد القادر سيد عبد الرؤوف

المدرس بقسم الدعوة والثقافة الإسلامية

هذا البحث مستل من حولية كلية أصول الدين بالقاهرة

العدد الخامس ١٩٨٨

منهج الدعوة الإسلامية
في ضوء القرآن الكريم

أ.د
عبد القادر سيد عبد الرزاق
المدرس بقسم الدعوة والثقافة الإسلامية

منهج الدعوة الإسلامية فى ضوء القرآن الكريم

د.
عبد القادر سيد عبد الرءوف
المدرس بقسم الدعوة والثقافة الإسلامية

منهج الدعوة إلى الله تعالى يرتكز على أمور ثلاثة : الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتى هى أحسن ، وهذا ما أوضحه القرآن الكريم كتاب الدعوة ومصدرها قال تعالى مخاطباً رسوله ، صلى الله عليه وسلم : « أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن »(١) .

ـ الحكمة :

يراد بالحكمة فى باب الدعوة ، أن يكون الداعية فاهماً لقصده عارفاً بأفضل الطرق المؤدية إلى الغرض على خير وجه ، وأن يكون عالماً بقواعد الدعاية بالنسبة لكل نمط وطائفة من طوائف المدعوين(٢) فالحكمة هى وضع الشىء فى موضعه ، والحكمة تقتضى أن يكون الداعية مدركاً لما حوله

(١) سورة النحل الآية ١٢٥ .
(٢) الدعوة إلى الإسلام أبو بكر ذكرى ص ١٥٠ .

مقدراً الظروف التى يدعو فيها ، مراعياً لحاجات الناس ومشاعرهم ، حتى يتمكن من الوصول إلى قلوبهم ومن هنا فعلى الداعى أن لا يرهد فى الدنيا والناس فى حاجة إلى النشاط والجد والعمل ، ولا يدعو إلى التبتل والانقطاع والمسلمون فى حاجة إلى الدفاع عن بلادهم وعقائدهم ، فالحكمة تجعل الداعى ينظر ببصيرة المؤمن فيرى حاجة الناس فيعالجها بحسب ما تقتضيه الظروف ، وبذلك يرون فيه المنقذ الحريص على سعادتهم وأمنهم .

يقول الإمام النسفى فى تفسير قوله تعالى : « أدع إلى سبيل ربك بالحكمة » « أدع إلى سبيل ربك ، إلى الإسلام ، بالحكمة ، بالمقالة الصحيحة المحكمة وهو الدليل الموضح للحق المزيل للشبهة ، والموعظة الحسنة ، وهى التى لا يخفى عليهم أنك تناصحهم بها ، وتقصد ما ينفعهم فيها أى أدعهم بالكتاب الذى هو حكمة وموعظة حسنة . والحكمة : المعرفة بمراتب الأفعال ، والموعظة الحسنة : إن يخلط الرغبة بالرهبة والإنذار بالبشارة . . وجادلهم بالتى هى أحسن ، بالطريقة التى هى أحسن طرق المجادلة من الرفق واللين من غير فظاظة ، أو بما يوقظ القلوب ، ويعظ النفوس ، ويحلو العقول[1] فالآية الكريمة تشير إلى ثلاثة من طرق العرض والتبليغ ، وهى طرق تستغرق كل أصناف المدعوين وتصلح بمجموعها لأداء الدعوة على وجهها الأكمل . فيما لا شك فيه أن من الناس طائفة أصحاب نفوس مشرقة ، قوية الاستعداد لإدراك المعانى والاستجابة لها ، شديدة الانجذاب نحو المبادىء واتباع الحق وهؤلاء يدعون بالحكمة ، وهى تعنى فى جوهرها بيان الحق لهم بياناً شافياً مؤيداً بأدلته القوية التى تنفى كل شبهة وتقطع السبيل أمام كل تردد .

فالحكمة يتسع معناها لتشمل العلم والمعرفة والطاعة والفهم والإصابة فى القول والفعل وهى وإن تعددت مدلولاتها لا تخرج عن معنى العلم وفعل الصواب .

(١) تفسير النسفى جـ ٢ ص ٢٢٥ .

يقول الإمام الرازى : واعلم أن الحكمة لا يمكن خروجها عن هذين المعنيين ، وذلك لأن كمال الإنسان فى شيئين : أن يعرف الحق لذاته والخير لأجل العمل به ، فالأول يرجع إلى العلم والإدراك المطابق ، والثانى إلى الفعل العدل والصواب ، فحكى عن إبراهيم عليه السلام قوله : رب هب لى حكما وهى الحكمة النظرية ، وألحقنى بالصالحين ، الحكمة العملية ، ونادى موسى عليه السلام فقال ، إننى أنا الله لا إله إلا أنا ، وهو الحكمة النظرية ثم قال ، فاعبدنى ، وهو الحكمة العملية ، فكمال حال الإنسان ليس إلا فى هاتين القوتين[1] أى العلم والإدراك ثم فعل العدل والصواب .

ولقد وردت الحكمة فى القرآن الكريم فى ذلك :

قال تعالى : (كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة .)[2].

وقال تعالى : (يؤت الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولوا الألباب)[3] .

وقال عز وجل : (لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين)[4] .

وقال : (ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غنى حميد)[5] .

---

(١) التفسير الكبير للامام فخر الدين الرازى ج ٧ ص ٧٢ ، ٧٣ .
(٢) سورة البقرة آية ١٥١ . (٣) سورة البقرة آية ٢٦٩ .
(٤) سورة آل عمران آية ١٦٤ . (٥) سورة لقمان آية ١٢ .

أما من السنة النبوية المشرفة :

فقد روى أن أعرابيا جاء يطلب شيئا من الرسول ، صلى الله عليه وسلم فأعطاه إياه ، ثم قال له أ أحسنت إليك ؟ قال الأعرابي : لا . ولا أجملت فغضب المسلمون وقاموا إليه فأشار إليهم أن كفوا . ثم قام ودخل منزله وأرسل إليه وزادة شيئا ، ثم قال : أأحسنت إليك ؟ قال : نعم . فجزاك الله به من أهل وعشيرة خيراً ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : أنت قلت ماقلت وفى نفس أصحابى من ذلك شيء ، فإن أحببت فقل بين أيديهم حتى يذهب ما فى صدورهم عليك . قال نعم . فلما كان الغد أو العشى جاء فقال صلى الله عليه وسلم : (إن هذا الأعرابي قال ما قال فزدناه فزعم أنه رضى أكذلك) قال نعم ، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً ، فقال صلى الله عليه وسلم : (مثلى ومثل هذا مثل رجل له ناقة شردت عليه ، فأتبعها الناس فلم يزيدوها إلا نفوراً ، فناداهم صاحبها : خلوا بينى وبين ناقتى فإنى أرفق بها منكم وأعلم ، فتوجه لها بين يديها فأخذها من قمام الأرض فردها حتى جاءت واستناخت وشد عليها رحلها واستوى عليها ، وإنى لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار)(١) .

فهذا النص يعطينا صورة ناطقة من حكمة الرسول ، صلى الله عليه وسلم فى الدعوة إلى الله تعالى ، فالأعرابي تناوله بلسانه ، إذ لم يعجبه هذا العطاء من الرسول صلى الله عليه وسلم ، فما زال به صلوات الله وسلامه عليه حتى أرضاه ، وهنا عدل الأعرابي عن السب إلى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان من نتيجة هذا العمل أن رضى الصحابة رضى الله عنهم عن الرجل بعد أن كانوا ساخطين عليه ، بل وهموا بقتله ، فالنبى صلى الله عليه وسلم علمهم بفعله العظيم كيف تكون الحكمة فى الدعوة ، وكيف يمكن تأليف القلوب النافرة والطباع الجامحة .

(١) الدعوة إلى الإسلام أبو بكر ذكرى ص ٥٥ ، ٥٦ .

وجاء يهودى إلى الرسول صلى الله عليه وسلم يتقاضاه ديناً فأخذ بمجامع ردائه وخنقه وشتمه ، فهم عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - بقتله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنا وهو كنا ، إلى غير هذا منك ، أحوج ياعمر ، تأمرنى بحسن الأداء . وتأمره بحسن التقاضى ، ثم قال : لقد بقى من أجله ثلاث وأمر عمر بقضيه ماله ويزيده عشرين صاعاً لما روعه : أى بسبب تخويفه إياه بالقتل ، فكان ذلك سبب إسلام اليهودى وكان أفضل من أسلم من اليهود أخلاقاً وأكثرهم مالا[1] . إن الدعوة حكمة أكثر من أن تكون قوة أو فصاحة أو مهارة .

٢ - الموعظة الحسنة :

تعريف الوعظ لغة :

بالنظر فى معاجم اللغة نجد أن الوعظ يدور حول النصح والتذكير بالعواقب ليلين قلب الإنسان ، سواء كان النصح والتذكير بالترغيب أو الترهيب .

يقول الجوهرى : الوعظ : النصح والتذكير بالعواقب . تقول : وعظته وعظاً وعظة فاتعظ ، أى قبل الموعظة . يقال : السعيد من وعظ بغيره ، والشقى من اتعظ به غيره[2] وعظه يعظه وعظاً وعظة : نصحه وذكره بالعواقب ، وأمره بالطاعة ووصاه بها ، والواعظ ، من ينصح ويذكر ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر[3] ويقول الراغب الأصفهانى : الوعظ زجر

(١) الدعوة إلى الإسلام أبو بكر ذكرى ص٣٨ ، ٣٩

(٢) الصحاح ؛ تاج اللغة وصحاح العربية للجوهرى : ج ٣ ص ٢١٨١

(٣) المعجم الوسيط : مجمع اللغة العربية د/ إبراهيم أنيس ج١ ص٦٤٣ ، ١٠

مقترن بتخويف[1] .

من التعريفات السابقة يكون الوعظ بمعنى النصح بالترغيب والترهيب أوهما معاً ليلين قلب الإنسان .

تعريفه فى الاصطلاح :

أما فى الإصطلاح فالوعظ : يطلق على القول الحق الذى يلين القلوب ويؤثر فى النفوس ويكبح جماح النفوس المتمردة ويزيد النفوس المهذبة إيماناً وهداية[2] .

ويقول آخر فى تعريف الوعظ أو الموعظة الحسنة : المراد بها إقناع النفوس باتباع طريق الخير على أفضل أسلوب ، والموعظة الحسنة مظهر من مظاهر الحكمة وجزء منها ، ولها شروط لابد منها :

١ — أن تكون صادرة عن إخلاص .

٢ أن يكون لها مقتضى يقتضيها من حال المدعو لا أن تكون مجرد حب للقول وتظاهر بالفصاحة والحكمة دون داع .

٣ — أن يصاحبها إقناع المدعو بأنها صادرة عن روح الإخاء وحب الخير له قبل كل شىء .

٤ — إذا كانت الدعوة خاصة بفرد أو أفراد معينين فيحسن أن تكون أولا تحت ستار السرية وبعيدة عن التشهير والتجريح الذى يثير من الشر أكثر مما ينشر من الخير

---

(١) المفردات فى غريب القرآن ص ٥٠٢ وانظر القاموس المحيط جـ ٢ ص ٤٠٠ ، معجم مقاييس اللغة جـ ٦ ص ١٢٣ ، المحيط فى اللغة ص ٢٠١ ، المصباح المنير جـ ١ ص ٤٧٨ .

(٢) هداية المرشدين للشيخ على محفوظ ص ٧١ .

• ـ أن تكون القدوة بالداعي أحد عناصرها فإن العظة بالقدوة من أنجح أساليب الوعظ(١) .

ومن هنا فالموعظة الحسنة هي الكلمة الطيبة ، التي تخرج من فم الداعية بإخلاص لتصل إلى عقول الناس ، فيجدون فيها الخير والسعادة ، ويحسون من خلال كلمته أنه صادق وحريص على جلب الخير لهم ودفع الضرر عنهم وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا فقال سبحانه وتعالى : « ومثل كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها »(٢) .

كما أن الموعظة الحسنة هي الكلمة الرقيقة ، التي تلمس القلوب فترق بها ، وتخالط النفوس فتهش لها وتفرح بها ، وتحمل للناس البشرى ، وتأخذ بأيديهم إلى طريق الحق والصواب ، وهي البلسم الشافي يداوي الجراح ويخفف الآلام وذلك عندما يلقيها الداعية لا يقصد بها إلا ابتغاء مرضاة الله تعالى ، لا يقصد بها الشهرة ولا يكون فيها رياء ونفاق أو مداهنة لأحد من الناس .

ويبين لنا الشيخ علي محفوظ أثر الموعظة الحسنة في النفوس فيقول :

معلوم أن الأمراض والعلل تعرض للأجسام فتذهب بجمالها ، وكثيراً ماتودي بحياتها إذا لم تسعف بالعلاج الناجح قبل استفحالها واشتداد خطرها ، والقلوب كالأجسام يعرض لها من الأمراض والعلل مايطفيء نورها ، وقد يفقد حياتها ، وذلك وزودها موارد الغي والضلال وانهماكها في الملذات والشهوات والتهاون بالأوامر والنواهي ، وعدم المبالاة بأنواع الفسوق والفجور ، وشيوع البدع ونبذ الآداب الدينية والأخلاق المحمدية ،

---

(١) الدعوة إلى الإسلام للأستاذ أبو بكر ذكري ص ١٥٤ ، ١٥٢ .

(٢) إبراهيم : ٢٤ ، ٢٥ .

وارتكاب كل مالا يرضاه الشرع والعقل من الشرور والقبائح ، فمن هذه الأفعال تكون أمراض القلوب وعللها ، ولا دواء لها إلا مراهم الشريعة الغراء المركبة تركيباً علمياً كيماوياً دقيقاً من أجزاء الخطب والمواعظ والإرشادات والنصائح ، من الكتاب والسنة ، فبهذه المواعظ والنصائح تصح النفوس ، وتسلم القلوب من المخاطر ، وترجع عن غيها إلى رشادها وتعدل عن الطريق الموجاء إلى الصراط السوى ، وعلى الجملة فالوعظ والارشاد هو العلاج الوحيد لصلاح العالم ، والدين الحنيف هو الدواء المفيد لشفاء القلوب من أمراضها(١) .

والسر فى ذلك أن النفوس البشرية أمارة بالسوء ، فهى تدفع الناس إلى الضلال والفساد وإلى ارتكاب المنكرات واقتراف الموبقات ، ولم تقف عند حد أو نهاية ، فإذا ماوجد الوعاظ والمرشدون ، والمصلحون ، الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، كانوا كالكواكب المشرقة ، فيبددون ظلمات الجهالة ، وينيرون للناس سبل الحياة الكريمة ، ويهدونهم إلى طريق الخير والسعادة ، ذلك لأنهم يهذبون النفوس ، ويربونها تربية دينية صالحة ، ويرشدونها إلى أقوم السبل ، ويحولون بينها وبين الوقوع فى الشهوات والملذات والأهواء الباطلة .

من مواعظ القرآن الكريم :

القرآن الكريم هو كتاب المواعظ ولذلك وردت فيه كلمة الموعظة فى مواضع متعددة من ذلك قوله تعالى : « فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ماسلف »(٢) وقوله عز وجل : « ومصدقاً لما بين يديه من التوراة

---

(١) هداية المرشدين للشيخ على محفوظ ص ٧٣ ، ٧٤ بتصرف .

(٢) البقرة آية ٢٧٥ .

وهدى وموعظة للمتقين ،[١] وقوله: «وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة [٢] وقوله : « يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين ، [٣] وقوله : « أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة »[٤].

والقرآن الكريم عرض لنا نماذج من الدعوة إلى الله تعالى بالموعظة الحسنة في صورة مشرقة رائعة يستفيد منها الدعاة في حياتهم ويأخذون منها ما يفيدهم من ذلك :

موقف سيدنا موسى وهارون عليهما السلام من فرعون الطاغية الجبار العنيد . الذي قال فيه الله سبحانه وتعالى : «إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم إنه كان من المفسدين ،[٥] فوصفه الله تعالى بالفساد والإفساد في الأرض وقال في موضع آخر على لسان فرعون : «وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري ،[٦] وقال : « فقال أنا ربكم الأعلى ،[٧] ومع هذا الفساد في الأرض واتصافه بالألوهية والربوبية ، وأنه ليس هناك إله أو رب سواه ، مع كل هذا يرسل الله تعالى له سيدنا موسى وهارون كي يدعواه إلى الله رب العالمين فقال عز من قائل : إذهب أنت وأخوك بآياتي ولا تنيا في ذكري ، إذهبا إلى فرعون إنه طغى ، فقولا له قولا ليناً لعله يتذكر أو يخشى ،[٨] سبحانك ربي ، مع هذا التكبر والعلو والطغيان أمرهما بأن يقولا له قولا ليناً لعله يتذكر أو يخشى وهذا الأسلوب الناجح في دعوة الطغاة إلى الله تعالى

---

(١) المائدة : ٤٦ (٢) الأعراف : ١٤٥

(٣) يونس : ٥٧ (٤) النحل : ١٢٥

(٥) القصص : ٤ (٦) القصص : ٣٨

(٧) النازعات : ٢٤ (٨) طه : ٤٢ - ٤٤

مع العلم بأن فرعون فى غاية العتو والاستكبار .

يقول ابن كثير فى تفسيره : (إذهبا إلى فرعون إنه طغى) أى تمرد وعتا وتجبر على الله وعصاه : « فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى » هذه الآية فيها عبرة عظيمة وهو أن فرعون فى غاية العتو والاستكبار وموسى صفوة الله من خلقه إذ ذاك ومع هذا أمر أن لا يخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين ، وقال وهب بن منبه قولا له إنى إلى العفو والمغفرة أقرب منى إلى الغضب والعقوبة وعن عكرمة فى قوله (فقولا له قولا لينا) أعذرا إليه قولا له إن لك ربا ولك معاداً وإن بين يديك جنة وناراً والحاصل من أقوالهم أن دعوتهما له تكون بكلام رقيق لين سهل رفيق ليكون أوقع فى النفوس وأبلغ وأنجح (١) .

لقد كان موقف سيدنا موسى مع فرعون كله نبل وشجاعة وعظمة ، لم يقابل التكبر من جانب فرعون بمثله ، ولم يسب فرعون كما سبه ، ولكنه تلطف معه ولم يلجأ إلى كلام فاحش أو لفظ بذىء وتلك هى عين الحكمة والموعظة الحسنة .

من مواعظ الإمام على لبعض ولده :

قال رضى الله عنه وهو وصاه للحسن والحسين رضى الله عنهما : أوصيكما بتقوى الله ، والرغبة فى الآخرة ، والزهد فى الدنيا ، ولا تأسفا على شىء فاتكما منها اعملا الخير وكونا للظالم خصما وللمظلوم عوناً ، ثم دعا محمداً وقال له : أما سمعت ما أوصيت به أخويك ؟ قال بلى . قال فإنى أوصيك به وعليك ببر أخويك وتوقيرهما ومعرفة فضلهما ، ولا تقطع أمراً دونهما . ثم أقبل

(١) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٢٥٣ .

عليهما فقال: أوصيكما به خيراً فإنه أخوكما وابن أبيكما، وأنتما تعلمان أن أباكما كان يحبه ويؤثر صلاحه.

ثم قال: يا بني أوصيكم بتقوى الله في الغيب والشهادة، وكلمة الحق في الرضا والغضب، والقصد في الغنى والفقر، والعدل في الصديق والعدو، والعمل في النشاط والكسل، والرضا عن الله في الشدة والرخاء، يا بني ابن آدم عيب نفسه شغل عن عيب غيره، ومن رضي بقسم الله لم يحزن على ما فاته، ومن سل سيف البغي قتل به، ومن حفر لأخيه بئراً وقع فيها، ومن هتك حجاب أخيه انكشفت عورات بيته، ومن نسي خطيئته استعظم خطيئة غيره، ومن أعجب برأيه ضل، ومن استغنى بعقله زل، ومن تكبر على الناس ذل، ومن خالط الأدنياء احتقر، ومن جالس العلماء وقر... يا بني الأدب خير ميراث، وحسن الخلق خير قرين، يا بني لا شرف أعلى من الإسلام ولا كرم أعلى من التقوى، ولا معقل أحرز من الورع، ولا شفيع أنجح من التوبة، ولا لباس أجمل من العافية، فطوبى لمن أخلص لله عمله، وحبه ونيته وأخذه وتركه، وكلامه وصمته، وقوله وفعله[1].

فهذه الوصية من الإمام علي كرم الله وجهه أوصى بها أولاده الحسن والحسين وقد اشتملت على خيري الدنيا والآخرة بما اشتملت عليه من مواعظ نافعة تنفع الإنسان في دينه ودنياه، فالإمام يوصيهم بتقوى الله عز وجل والتقوى كما عرفها الإمام نفسه هي: الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل والقناعة بالقليل والاستعداد ليوم الرحيل فتقوى الله هي جماع الأمر كله، ثم يأمرهم أن يقولوا كلمة الحق ولو على أنفسهم، وأن يقتصدوا في الغنى والفقر، وأن يعدلوا في حكمهم بين الناس سواء كان صديقاً أو عدواً.

---

(١) صفة الصفوة لابن الجوزي ج ١ ص ١٢٠ بتصرف.

(وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) ثم يوصيهم بالتعرف إلى الله فى وقت الشدة والرخاء (تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة) ثم ينهاهم عن الإشتغال بعيوب الآخرين ، ثم يأمرهم بالقناعة بما قسم الله (إرض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس) كذلك يأمن الإمام أبناءه بعدم البغى والاعتداء على الآخرين لأن فيه مهلكة . وعدم التجسس على عورات الناس كما نهاهم عن الإعجاب بالرأى لأنه ضلال ، والاستغناء بالعقل لأنه انزلاق ، وعدم التكبر على الناس لأنه ذلة ، كما نهاهم عن مخالطة الأنذال . وأمرهم بمجالسة العلماء ، ثم حثهم على الأدب لأنه ميراث الأنبياء (أدبنى ربى فأحسن تأديبى) وحسن الخلق لأنه وصف الأنبياء حيث مدح الله تعالى حبيبه محمد صلى الله عليه وسلم بقوله (وإنك لعلى خلق عظيم) .

من مواعظ الإمام الشافعى رحمه الله تعالى:

قال المزنى : دخلت على محمد بن إدريس الشافعى رضى الله عنه ، عند وفاته ، فقلت : يا أبا عبد الله ، رحمك الله ، عظنى فقال لى : اتق الله ومثل الآخرة فى قلبك . واجعل الموت نصب عينيك . ولا تنس موقفك بين يدى الله عز وجل وكن من الله تعالى على وجل . واجتنب محارمه وأد فرائضه وكن مع الحق حيث كان ، ولا تستصغرن نعم الله وإن قلت ، وقابلها بالشكر وليكن صمتك تفكرا ، وكلامك ذكرا : ونظرك عبرة ، اعف عن ظلمك وصل من قطعك ، وأحسن إلى من أساء إليك ، واصبر على النائبات واستعذ بالله من النار بالتقوى ، فقلت : زدنى . رحمك الله يا أبا عبد الله قال : ليكن الصدق لسانك ، والوفاء عنادك . والرحمة ثمرتك ، والشكر طهارتك والحق تجارتك ، والتودد زينتك . والكتاب فطنتك ، والطاعة معيشتك والرضا اصطبارك ، والخوف جلبابك والصدقة حرزك ، والزكاة حصنك والحياء أميرك . والحلم وزيرك ، والتوكل ورعك ، ولتكن الدنيا صيحتك ، والفقر

ضجيعك ، والحق قائدك ، والحج والجهاد بغيتك والقرآن محدثك ، والله مؤنسك فمن كانت هذه صفته كانت الجنة منزلته (١)

وهذه موعظة اشتملت أيضا على خيرى الدنيا والآخرة ، فقد افتتحها الشافعى رحمه الله بتقوى الله عز وجل ، وتقوى الله غاية كل مؤمن فى الحياة الدنيا ، ثم يذكره بالآخرة وما فيها من ثواب وعقاب مع عدم نسيان الموت لحظة واحدة ، وموقفه بين يدى الله تعالى « يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم » (٢) وهذا لا يكون إلا باجتناب ما حرم الله تعالى وتأدية فرائضه ، واتباع الحق والبعد عن الباطل ، وشكر الله على نعمه ، ثم يحثه على العفو عن الظالمين ، وصلة المقاطعين ، والإحسان إلى المسيئين والصبر على ما ينزل به من الشدائد ، والاستعاذة بالله تعالى من النار وذلك بتقوى الله والإخلاص له فى العمل ، كما اشتملت الموعظة على خلال كريمة وصفات حميدة من اتصف بها نال السعادة فى الدنيا والآخرة ، فقد اشتملت على الصدق والوفاء والرحمة والشكر والطاعة والرضا ، والفهم فى الدين والرجاء والخوف والحياء والحلم والتوكل على الله تعالى ، ثم يختم الشافعى موعظته بقوله : والله مؤنسك ، وهذا حث على الإكثار من ذكر الله تعالى حيث قال عز وجل : الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب (٣) .

إدعاء والرد عليه :

ومع ما للوعظ والإرشاد من فائدة وأثر ظاهر فى تهذيب النفوس وسعادة

---

(١) المناقب للبيهقى جـ ٢ ص ٢٩٥ .

(٢) الشعراء : ٨٨ ، ٨٩ .

(٣) الرعد ٢٨ .

البشرية ، فقد أنكره جماعـــة من المتشائمين وقالوا إنه محض عبث ، لأن الأخلاق مبنية على غرائز لا تتحول وطباع لا تتبدل . من هؤلاء المتشائمين أبو العلاء المعرى . الذى لا يرى للوعظ فائدة ترجى لطول ما جرب الناس واختبرهم فلم تزده التجربة إلا يأسا وقنوطا ، أنظر قوله :

وما قبلت نفسي من الخير لفظة
وإن طال ما فاهت به الخطباء

ومع هذا التشاؤم الصارخ من ناحية جدوى الوعظ كان أبو العلاء لا يفتأ طول حياته مكبا على الوعظ أكثر من أى عمل آخر ، ولكن مثله الأعلى كان دائماً لا يتحقق . وهذا سر برمه بالدنيا وأهلها . أنظر قوله :

متى أنا للدار المريحة ظاعن
فقد طـال فى دار العنـاء مقـامى
وقد ذقتها بين شهد وعلقـــم
وجربتها من صحة وسقـام(١)

كذلك الحال عند بعض فلاسفة العصر الحديث ، الذين انتهت إليهم كل تجارب الإنسانية . والذين كنا ننتظر منهم غير ذلك قالوا أيضا بعدم الفائدة من الوعظ والارشاد . وأنه لن يقدم أو يؤخر شيئا من هؤلاء الفلاسفة :

شو بنهور الفيلسوف الألمانى الذى يقول : يولد الناس أخيارا أو أشرارا كما يولد الجمل وديعاً والنمر مفترساً . وليس لعلم الأخلاق إلا أن يصف سيرة الناس وعوائدهم كما يصف التاريخ الطبيعى حياة الحيوان .

---

(١) الدعوة إلى الإسلام أبو بكر ذكرى ص ١٢ ، ١٣ .

وليفى برول الفيلسوف الفرنسى الذى يقول : أن ميولنا الحسنة أو القبيحة التى نجىء بها إلى هذا العالم عند ولادتنا هى طبيعتنا. فكيف نكون مسئولين عن طبيعة هى ليست من عملنا ، أو على الأقل ليست من عملنا الشعورى الاختيارى .

وهيوم الانجليزى الذى يقول : إن شعورنا بالمسئولية ليس إلا وهما خداعا(١) .

هذه آراء الفلاسفة والمفكرين عن الوعظ والارشاد ، وأنه لا قيمة له حيث أن الناس يولدون أخيارا أو أشرارا ، وأن الحسن والقبيح شيء طبيعى فى الانسان . وأن الشعور بالمسئولية ليس إلا نوع من الخداع .

وبنظرة فاحصة لهذه الآراء السابقة نجد أنها لا تقوم على أساس وباطلة فى دعواها ومنقوضة بالشرع والعقل والتجربة والملاحظة أما الشرع فإن الله عز وجل يقول: « وهديناه النجدين»(٢) أى عرفناه طريق الخير وطريق الشر ويقول تعالى : « إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفورا »(٣) أى بيناه له ووضحناه وبصرناه به (٤) .

ويقول عز من قائل : « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها »(٥) . قال ابن عباس فى قوله تعالى « فألهمها فجورها وتقواها أى بين لها الخير والشر وقال سعيد بن جبير :

---

(١) راجع فى هذا مبادىء علم الاخلاق د/محمد عبد الله دراز ص ٦ ، ٧ .
(٢) البلد : ١٠ .
(٣) الإنسان : ٣
(٤) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٤٥٣ .
(٥) الشمس : ٦ ـ ١٠ .

ألهمها الخير والشر . وفي قوله : (قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها) أي أفلح من زكى نفسه بطاعة الله تعالى وطهرها من الأخـــلاق الدنيئة والرذائل ، وقد خاب من دساها ، أي أخملها ووضع منها بخذلانه إياها عن الهدى حتى ركب المعاصي وترك طاعة الله عز وجل [١] وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء» [٢] .

هذا من ناحية الشرع . أما من ناحية العقل : فإن الله عز وجل أنزل الكتب وأرسل الرسل من أجل إصلاح الانسان وسعادته في الدنيا والآخرة .

ورسالة الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم كانت وعظـــاً وإرشاداً وتوجيها إلى طريق الهداية ، كانوا بالوعظ ينبهون القلوب من غفلتها ويغسلونها من الجهل والغرور والأنانية والطمع والانحراف إلى الميول المادية الحقيرة ، ويضيئون النفوس بضياء الحق ويشعرونها بالروحانية السامية ، ويبعدونها عن التدنس بالطباع البهيمية المنحطة ، وكانوا بالإرشاد يمحون ظلام الجهالة وينشرون أضواء العلم والعرفان ويبصرون أتباعهم بما ينفعهم من أمور دينهم ودنياهم [٣] .

وقال بعض الحكماء . الموعظة موقظة للقلوب من سنة الغفلة ، ومنقذة للبصائر من سكرة الحيرة ، ومحيية لها من موت الجهالة ومستخرجة لها من ضيق الضلالة [٤] .

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٥١٥ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٥١٦ .

(٣) الدعوة إلى الإسلام أبو بكر ذكري ص ١٩ ، ٢٠ .

(٤) هداية المرشدين ص ٧٣ .

فالإنسان خلق مستعداً للخير والشر ، فإن تيسرت له التربية الصالحة والبيئة الصالحة نشأ على الإيمان الخالص والأخلاق الفاضلة ، وحب الخير والفضيلة ، أما إذا كان العكس فلم تتيسر له التربية الصالحة والبيئة الصالحة فإنه ينشأ على الكفر والأخلاق المنحلة . وحب الشر والرذيلة .

ومن هنا فالوعظ والارشاد لهما أثر كبير فى هداية النفس الإنسانية .

أما من ناحية التجربة والملاحظة

من الملاحظ فى عالم الإنسان أن إنساناً ما ، عاش طويلا فى بيئة الضلال والفساد ، وبلغ فيه الإجرام والشقاء كل مبلغ ، وقد أذاق المجتمع من وبال شروره وآثامه ، وأفض مضجعه من ويلات شقائه وإجرامه وإذا برفيق صالح ، أو مرب مؤثر ، أو داعية مخلص .. نقله من وهدة الشقاء إلى روضة السعادة ، ومن بيئة الاجرام إلى عالم الكرام البررة فيصبح بعد هذا الشقاء الطويل والإجرام العريق من كبار الأنبياء ومن أعـــلام الأبرار السعداء (١) .

والدليل على ذلك ما رواه أبو سعيد الخدرى رضى الله عنـه أن نبى الله صلى الله عليه وسلم قال : « كان فيمن كان قبلكم رجل قتـل تسعة وتسعين نفسا فسأل عن أعلم أهل الأرض فدل على راهب فأتاه فقال : إنه قتل تسعة وتسعين نفساً فهل له من توبة ؟ فقال : لا . فقتله فكمل به مائة ، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم فقال : إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة ؟ فقال : نعم . ومن يحول بينـه وبين التوبة ؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناساً يعبدون الله تعالى فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء » (٢)

---

(١) تربية الأولاد فى الإسلام عبد الله علوان ص ٦٧٠ ج ٢ .

(٢) رياض الصالحين ص ٢٠ ، ٢١ والحديث متفق عليه .

فالرجل عاش فى بيئة كلها إجرام وفساد وسوء وإذا بهذا الداعية يأخذ بيده من هذا الوباء الذى يعيش فيه وينقله إلى بيئة العبادة والتقوى والإخلاص وحب الخير والفضيلة وما ذلك إلا بالموعظة الحسنة التى قدمها له وعرفه بأن أرضه أرض سوء وفساد فلا يرجع إليها .

ولننظر إلى سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه كيف كان قبل الإسلام كان معروفا بالشدة والبطش . قال ابن اسحاق : حدثنى عبد الرحمن بن الحارث ابن عبد الله بن عياش بن أبى ربيعة ، عن عبد العزيز بن عبد الله بن عامر بن ربيعة عن أمه أم عبد الله بنت أبى حثمة ، قالت : والله إنا لنترحل إلى أرض الحبشة وقد ذهب عامر فى بعض حاجاتنا ، إذ أقبل عمر بن الخطاب حتى وقف على وهو على شركه قالت : وكنا نلقى منه البلاء أذى لنا وشدة علينا ، قالت : فقال : إنه للانطلاق يا أم عبد الله ، قالت : فقلت : نعم والله لنخرجن فى أرض الله ، آذيتمونا وقهرتمونا حتى يجعل الله مخرجا ، قالت فقال : صحبكم الله ، ورأيت له رقة لم أكن أراها . ثم انصرف وقد أحزنه خروجنا .

قالت : فجاء عامر بحاجته تلك ، فقلت له : يا أبا عبد الله ، لو رأيت عمر آنفا ورقته وحزنه علينا ، قال : أطمعت فى إسلامه ؟ قالت : قلت : نعم ، قال : فلا يسلم الذى رأيت حتى يسلم حمار الخطاب ، قالت : يأسا منه ، لما كان يرى من غلظته وقسوته عن الإسلام (١) .

سبحان الله أهذا الحد وصل اعتقاد الناس فى عمر أنه لن يسلم حتى يسلم الحمار ، الذى يملكه والده ، وذلك من شدته وقسوته على الناس فاستبعدوا

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٣٤٢ ، ٣٤٣ .

أن يتغير عمر مما كان عليه من تقاليد الجاهلية ويدخل فى دين الله تعالى ، الذى جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم يبلغه للناس ولكن كيف تحول عمر ابن الخطاب إلى الإسلام ؟

قال ابن اسحاق : خرج عمر يوما متوشحا سيفه يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلقيه نعيم بن عبد الله ، فقال له : أين تريد يا عمر : فقال : أريد محمداً هذا الصابى الذى فرق أمر قريش ، وسفه أحلامها . وعاب دينها وسب آلهتها ، فأقتله ، فقال له نعيم : أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟ قال : وأى أهل بيتى ؟ قال : ابن عمك سعيد بن زيد ، وأختك فاطمة بنت الخطاب فقد والله أسلما ، وتابعا محمدا على دينه ، فعليك بهما فذهب عمر إلى دار أخته فاطمة ، فوجد عندها جماعة يقرأون القرآن ، فلما أحسوا بعمر اختفوا ما عدا أخته وزوجها فلما دخل قال : لقد أخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه ، وبطش بسعيد فنعته فاطمة من ذلك فضربها فشجها . فقالت له أخته وزوجها نعم اسلمنا فاصنع ما بدا لك . فلما رأى الدم من أخته ندم على ما صنع . ثم ألقى بنظره إلى الأرض فإذا صحيفة فأخذها فإذا فيها : « بسم الله الرحمن الرحيم طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى .....» فلما قرأ منها صدراً . قال ما أحسن هذا الكلام وأكرمه . ثم راح يفكر فى الفرق بين هذا الكلام العجيب . وبين المألوف من الكلام . ثم غشيته غاشية من الندم على ما مضى من عمره فى الجهالات والقسوة على المؤمنين ، وفى الحال تغيرت طبيعته . وأخذ يسأل أخته وعلامات العظمة والاعتبار تظهر على وجهه . أين دار ابن الأرقم كى أسلم على يد محمد فكبر كل من فى البيت وأرشدوه . فذهب وأسلم وأعز الله باسلامه الاسلام[1] .

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٣٤٣ وما بعدها بتصرف .

وما كان هذا إلا بعظة عابرة غير مقصودة وقعت فى قلب عمر بن الخطاب رضى الله عنه فحولته من القسوة والشدة إلى الرقة والرأفة وسبحان مغير الأحوال .

وإذا نظرنا إلى عالم الحيوان نجد أن الانسان بخبرته غير كثيرا من طباع الحيوانات من النفور إلى الإلف ومن الصعوبة إلى الانقياد ومن الاعوجاج إلى الاعتدال ، وهذا واضح وظاهر فى السيرك حيث يقوم الإنسان بتدريب الأسود والنمور وهى حيوانات متوحشة كما هو معروف ، كذلك يقوم الانسان بترقيص الخيل وملاعبة الطيور الجارحة ، وإذا كان هذا فى عالم الحيوان فما بالك بالإنسان وهو أسلس قيادا وأعظم مرونة فإن تغير الطباع يكون أسهل وأسرع .

وكذلك الحال بالنسبة لعالم النبات ، فإن الإنسان عندما يضع البذرة فى أرض خصبة . ثم يتعهدها بالعناية والوقاية من الحشائش والحشرات حتى تنمو وتكبر ، فإن هذه البذرة سوف تؤتى أكلها ، أما إذا كان العكس ووضعت هذه البذرة ولم يتعهدها الإنسان بالرعاية والعناية والوقاية وتركها على هذه الحال بدون تهذيب ولا إصلاح فإنها لا تؤتى أكلها ولا تعطى زهرا ولا ثمرا ، بل تصبح هشيما تذروه الرياح .

والنفس الانسانية تتغير طباعها وتتهذب بالوعظ والإرشاد ، حينما تعهدها بالأخلاق الفاضلة ، ونمدها بالعلوم والمعارف التى تقربها من الله عز وجل ومن هنا تنشأ على حب الخير وبغض الشر .

والذى نستخلصه من كل ما سبق أن دعوى هؤلاء الفلاسفة بأن الطباع لا يمكن تغييرها دعوى باطلة ينقضها الشرع والعقل والتجربة والملاحظة وإذا قال أحد غير ذلك فعليه أن يأتى بالدليل والبرهان على قوله هذا .

٣ — المجادلة بالتى هى أحسن :

هذا هو الأسلوب الثالث من أساليب الدعوة إلى الله تعالى، وهو الجدال بالحسنى . وأصل مادة المجادلة : جدل يقول صاحب مختار الصحاح جادله خاصمه مجادلة وجدالا ، والاسم الجدل ، وهو شدة الخصومة[١] .

وفى المفردات : الجدال المعارضة على سبيل المنازعة والمغالبة وأصله من جدلت الحبل أى أحكمت فتله ومنه الجديل .. وقيل : الأصل فى الجدال الصراع وإسقاط الانسان صاحبه على الجدالة وهى الأرض الصلبة .

أما فى الشرع فقد استعمل فى مقابلة الأدلة لظهور أرجحها[٢]

وهذا الاستعمال قد يكون محمودا وقد يكون مذموما ، فالجدال المحمود يكون بإظهار الحق والوقوف عليه ، والجدال المذموم يراد منه المراوغة والمكابرة والمعاندة .

وقد وردت مادة الجدال فى القرآن الكريم كثيرا من ذلك :

قوله تعالى : « ولا جدال فى الحج ..»[٣] وقال : « قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا »[٤] « وجادلهم بالتى هى أحسن »[٥] « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن »[٦] « وجادلوا بالباطل ليدحضوا به

---

(١) مختار الصحاح للرازى مادة جدل ٣٨٤ .
(٢) المفردات للراغب الأصفهانى مادة جدل وكذلك المصباح المنير مادة جدل
(٣) البقرة : ١٩٧ .
(٤) هود : ٣٢ .
(٥) النحل : ١٢٥ .
(٦) العنكبوت : ٤٦ .

الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب »(١)

والجدال بالتي هي أحسن أسلوب له قيمته في نجاح الدعوة ، فليس أسرع إلى القلوب ، وأحب إلى النفوس ، من قول يهدى إلى الحق والخير وذلك بالمسالمة والحسنى ، أما السفسطة ومحاولة الغلبة عن طريق الخشونة والتجريح والطعن فهذا أسلوب مرفوض يؤدى إلى نتيجة عكسية .

ومن أجل ذلك أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يجادل بالتي هي أحسن وأن يستعمل الرفق واللين وحسن الخطاب في دعوته .

يقول الإمام ابن كثير في تفسيره لهذه الآية : من احتـــاج منهم إلى مناظرة وجدال فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب كقوله تعالى « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن » ، فأمره تعالى بلين الجانب كما أمر به موسى وهارون عليهما السلام حين بعثهما إلى فرعون في قوله : « فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى »(٢) .

وقد عرض القرآن الكريم نماذج من الدعوة إلى الله تعالى بالجدال بالتي هي أحسن في صورة رائعة ، يستفيد منها دعاة عصرنا في حياتهم .

١ — موقف سيدنا إبراهيم من أبيه :

سيدنا إبراهيم عليه السلام هو أبو الأنبياء والمرسلين يفتح عينيه فيجد نفسه بين قوم يعبدون الأصنام ويقدسونها من دون الله تعالى ، فيغضب لله تعالى على هذا الفعل من هؤلاء القوم ويشتد غضبه عندما يجد البيت الذي تربى

---

(١) غافر : ٥ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٥٩١ .

ترعرع فيه توضع فيه الأصنام على أنها آلهة تعبد من دون الله ومن الذى يصنع هذه الأصنام ؟ إنه أباه .

فلابد إذن من مواجهة أبيه قبل أن يواجه المجتمع الذى يعيش فيه ودار الحوار بين سيدنا إبراهيم وابيه ، ولكنه حوار اتسم بالأدب والجدال الحسن فيقول لأبيه كما حكى القرآن الكريم :

« يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا ، يا أبت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطاً سوياً ، يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا . يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً[1] .

لقد كان والد إبراهيم فى مقدمة عابدى الأصنام . بل كان ممن ينحتها ويبيعها ، وقد عز على إبراهيم - عليه السلام - فعل والده وهو أقرب الناس إلى قلبه ، فرأى من واجبه أن يخصه بالنصيحة ويحذره عاقبة كفره ، لقد خاطب أباه بلهجة تسيل أدبا ورقة مبيناً بالبرهان العقلى بطلان عبادته للأصنام ، أنظر كيف استهل إبراهيم - عليه السلام كلامه عند كل نصيحة بقوله : « يا أبت » توسلا إليه واستعطافا لقلبه مع استعمال الأدب الجم ، وهذا كلام يهز أعطاف السامعين[2] .

وبعد هذا الحوار الهادىء والحديث الشيق ، الصادر من قلب علوه بالإيمان ، قلب يحب الخير للناس أجمعين ، فكيف بابيه وأهله ، نجد أن أباه يثور عليه ويتوعده وكأنه يقول له : كيف ترغب عن آلهة أصنعها بيدى وأعبدها وأنت ابنى ، كان الأولى بك والأجدر أن تكون

---

(١) مريم : ٤٢ - ٤٥ .

(٢) مع الانبياء فى القرآن الكريم للاستاذ عفيفى عبد الفتاح طباره ص ١٠٩ .

أول متقرب لهذه الآلهة ، ثم يهدده إن ترك هذه الآلهة وتمسك بالدين الجديد الذى جاء به فيقول له فى صورة المتعجب :

« أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى مليا (١) .

وكان جواب سيدنا إبراهيم عليه السلام لأبيه بعد هذا التهديد بالرجم والقتل أن قال له : « سلام عليك سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفيا » (٢) فقد بلغ سيدنا إبراهيم عليه السلام رسالة ربه وأدى ما عليه من أمانة وأوضح لأبيه الطريق الصحيح ، الذى يسلكه .

واستغفار سيدنا إبراهيم عليه السلام لأبيه مع كفره وعناده كان عن موعدة وعدها إياه ، إسمع إلى قوله تعالى : « وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم » (٣) .

وبعد ما أدى عليه من أمانة تجاه والده بنصحه وتذكيره وتبصيره ، ثم الاستغفار له ، لم يرض بهذا المقام ، الذى تعبد فيه الأصنام من دون الله تعالى ، ولذلك اعتزل القوم وما يعبدون واتخذ لنفسه منهجا يسير عليه قال تعالى : « وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربى عسى ألا أكون بدعاء ربى شقيا » (٤) .

ولكن ما ذا كانت نتيجة الاعتزال من جانب سيدنا إبراهيم عليه السلام ؟

---

(١) مريم : ٤٦ .

(٢) مريم : ٤٧ .

(٣) التوبة ١١٤ .

(٤) مريم : ٤٨ .

يوضح القرآن الكريم هذه الحقيقة فيقول عز وجل : « فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا ، ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عليا »(١) .

يقول ابن كثير : (فلما اعتزل الخليل أباه وقومه فى الله أبدله الله من هو خير منهم ووهب له إسحاق ويعقوب يعنى ابنه وبن إسحاق ، أى جعلنا له نسلا وعقبا أنبياء أقر الله بهم عينه فى حياته ولهذا قال : « وكلا جعلنا نبيا » وقوله : « ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عليا » قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس يعنى الثناء الحسن وقال ابن جرير إنما قال « عليا » لأن جميع الملل والأديان يثنون عليهم ويمدحونهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين »(٢)

٢ - موقف آخر لسيدنا إبراهيم عليه السلام :

بعد أن فرغ سيدنا إبراهيم عليه السلام من دعوة أبيه وقومه إلى عبادة الله وترك عبادة الأصنام ، لأنها لا تنفع ولا تضر ، ولا تسمع ولا تبصر كان لا بد من مواجهة المجتمع الذى يعيش فيه ، الذى ألف عبادة الأصنام واستقر عليها مدعين أنها عبادة الآباء والأجداد فكيف يتركوها لهذا الدين الجديد ، الذى جاء به إبراهيم عليه السلام .

يحدثنا القرآن الكريم عن هذه المحاورة التى دارت بين سيدنا إبراهيم عليه السلام وبين عبدة الأصنام . قال تعالى : « ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين ، إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ، قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين ، قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى

(١) مريم : ٤٩ ، ٥٠ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ١٢٤ .

ضلال مبين ، قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين . قال بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين ، وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين ، فجعلهم جذاذا إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون »(١).

فابراهيم — عليه السلام — بتحطيمه الأصنام أقام دليلا حسيا لقومه على بطلان عبادة الأصنام ، فلو كانت آلهة حقيقية لدافعت عن نفسها وأصابت بالضرر من أرادها بسوء ، وهذه الحقيقة التى فطن لها الامبراطور (هيديوشى) امبراطور اليابان فقد شيد هذا الامبراطور تمثالا ضخما لبوذا ولم يكد يتم بناؤه حتى زلزلت الأرض سنة ١٥٩٦ فألقت به على الأرض هشيما . ويروى فى اليابان أن (هيديوشى) رمى الصنم المحطم بسهم قائلا له فى ازدراء : لقد أقمتك هاهنا بباهظ النفقات فلم تستطع حتى حماية معبدك (٢).

ورجع القوم من عيدهم فوجدوا الأصنام كلها محطمة ما عدا الصنم الكبير ، الذى يتوسطهم وهنا لا بد من التساؤل ، من الذى فعل هذا بالآلهة إنه ظالم بفعله هذا فيقول بعضهم سمعنا فتى يقال له إبراهيم يذكر هذه الآلهة بسوء ، ويسرع الجميع فى طلب إبراهيم وتقديمه للمحاكمة العاجلة .

قال تعالى : « قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين ، قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم ، قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون »(٣).

وهنا تحين الفرصة لسيدنا إبراهيم عليه السلام لكى يبين لهم على ملأ من الناس سفاهة عقولهم وتفاهة معبوداتهم ، لأنها لو كانت آلهة كما يعتقدون

---

(١) الأنبياء ٥١ — ٥٨ .

(٢) مع الأنبياء فى القرآن الكريم ص١١١ ، ١١٢ .

(٣) الانبياء : ٥٩-٦١ .

لدافعت عن نفسها ولما حدث لها ما حدث من تكسير وتحطيم ، فسألوه قائلين : أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ، قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون »[1] وهذا تهكم واستهزاء وسخرية من سيدنا إبراهيم عليه السلام لهؤلاء الناس الذين يعبدون آلهة لا تنطق .

يقول الإمام ابن كثير : وكان هذا هو المقصود الأكبر لإبراهيم عليه السلام أن يبين فى هذا المحفل العظيم كثرة جهلهم وقلة عقولهم فى عبادة هذه الأصنام التى لا تدفع عن نفسها ضرا ولا يملك لها نصرا فكيف يطلب منها شيء من ذلك[2] . ثم تنتهى المحاكمة بالحرق لإبراهيم عليه السلام ، فينجيه الله تعالى من كيدهم « وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين »[3] .

٣ - موقف الرسول صلى الله عليه وسلم من عتبة بن ربيعة :

أرادت قريش أن تجرب أسلوب الترغيب مع النبي ، صلى الله عليه وسلم بعد ما جربت معه أسلوب الترهيب فأرسلت عتبة بن ربيعة وكان معروفا بالهدوء والرزانة ، فذهب إلى النبي صلى الله عليه وسلم وكان جالسا وحده فى المسجد الحرام وقال له : يا ابن أخى إنك منا حيث قد علمت من البسطة فى العشيرة ، والمكان فى النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفهت به أحلامهم وعبت به آلهتهم ودينهم وكفرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع منى أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها ، قال : فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : قل يا أبا الوليد ، أسمع ، قال : يا ابن أخى ، إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من

(١) الأنبياء : ٦٢ ، ٦٣ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ١٨٢ .

(٣) الأنبياء : ٧٠ .

أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد به شرفا سودناك علينا ، حتى لا نقطع أمرا دونك ، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك رئيا(١) تراه لا تستطيع رده عن نفسك ، طلبنا لك الطب . وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه فإنه ربما غلب التابع(٢) على الرجل حتى يداوى منه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أفرغت يا أبا الوليد ؟ قال نعم قال : فاسمع منى ، قال : أفعل ، فقال :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، حم . تنزيل من الرحمن الرحيم ، كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون . بشيرا ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون ، وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه » ثم مضى الرسول صلى الله عليه وسلم حتى وصل إلى قوله تعالى : « فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » ولما وصل الرسول إلى ذلك أمسك عتبة على فمه ، ورجاه أن يكف خشية أن يقع العذاب على قومه ، واستمر الرسول صلى الله عليه وسلم حتى انتهى إلى السجدة منها ، فسجد ثم قال : قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت ، فأنت وذاك ، فرجع عتبة إلى قريش بوجه غير الوجه ، الذى ذهب به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت قريش نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به . فلما جلس إليهم قالوا : ما وراءك ؟ قال : وراءى أنى قد سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا بالكهانة ، يا معشر قريش أطيعونى واجعلوها بى وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ عظيم ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم ، وعزه عزكم ، وكنتم أسعد

---

(١) الرئى بفتح الراء وكسرها : ما يتراءى للانسان من الجن .

(٢) التابع : من يتبع الناس من الجن .

الناس به ، قالوا سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه ، قال : هذا رأيي فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم[1] .

مناظرة بين الإمام الشافعي ومحمد بن الحسن :

قال محمد بن الحسن : يا ابن إدريس ، ما تقول في رجل عنده أربع فأصاب الأولى عمة الثانية ، وأصاب الثالثة خالة الرابعة ، فقال الشافعي :

ينزل عن الثانية والرابعة قال محمد بن الحسن : ما الحجة في ذلك ؟

قال الشافعي : أخبرنا مالك، عن أبي الزناد عن الأعرج، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يجمع بين المرأة وعمتها ولا بين المرأة وخالتها »[2] . ما تقول أنت يا محمد بن الحسن ؟ كيف استقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم القبلة يوم النحر وكبر ؟ فتلعثم محمد بن الحسن ولم يحر جوابا . فالتفت الشافعي إلى هارون فقال : يا أمير المؤمنين يسألني عن الحلال والحرام فأجيبه وأسأله عن سنة من سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيتعتع والله لو سألته : كيف فعل أبو حنيفة لأجابني[3] .

مما سبق نتبين ما كان يتصف به الشافعي رحمه الله ، من الشجاعة والجرأة في جانب الحق . فلم تمنعه صداقة محمد بن الحسن الشيباني من المناظرة

---

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٩٣ ، ٢٩٤ .

(٢) الحديث أخرجه الامام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه ج ١ ص ٥٨٩ كتاب النكاح باب تحريم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها في النكاح

(٣) المناقب البيهقي ج ١ ص ١٣٧ .

ما دام الحق فى جانبه ولم يتهيب أمير المؤمنين وهو يسمع هذه المناظرة من أن ينتصر للحق ، ويدافع عنه مع علمه بمكانة محمد بن الحسن لدى هارون الرشيد ، فقد كان صاحب فضل ومكانة كبيرة عنده ، كل هذا لم يقف حائلا بين الشافعى وبين ما يريد من إحقاق الحق وإبطال الباطل حتى ولو كان السلطان أو الخليفة نفسه . وهذا مثل يبين ما ينبغى أن يكون عليه الداعى فى العصر الحديث من وجوب الإحاطة بموضوع دعوته وحفظ كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، لا يخاف التهديد ولا يخضع لإنسان مهما كانت سلطته ، فالخضوع لا يكون إلا لله سبحانه وتعالى.

مناظرة بين الشافعى وبشر المريسى :

قال بشر المريسى للشافعى : أخبرنى ما الدليل على أن الله تعالى واحد ؟

فقال الشافعى : يا بشر ما تدرك من لسان الخواص فأكلمك على لسانهم إلا أنه لا بد لى أن أجيبك على مقدارك من حيث أنت . الدليل عليه به ومنه وإليه ، واختلاف الأصوات من الصوت إذا كان المحرك واحدا دليل على أنه واحد ، وعدم الضد فى الكلام على الدوام دليل على أنه واحد : « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ، وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون »(١) كل ذلك دليل على أن الله تعالى واحد لا شريك له فقال بشر : وما الدليل على أن محمدا رسول الله ؟

قال : القرآن المنزل ، وإجماع المسلمين عليه ، والآيات التى لا تليق بأحد غيره دليل على أنه رسول الله ، لا بعده مرسل يعزله ، وامتهانك إياى بهذين

(١) البقرة : ١٦٤ .

تسؤالين ، وقصدك إياى بهما دون فنون العلم دليل على أنك حائر فى الدين، تائه فى الله عز وجل ، فقال له بشر: إدعيت الإجماع، فهل تعرف شيئا أجمع الناس عليه؟ قال: نعم أجمعوا على أن هذا الحاضر أمير المؤمنين ، فمن خالفه قتل، فضحك هارون الرشيد وأعجب من حوار الشافعى ومناظرته فعفا عنه(١).

فالشافعى رحمه الله صمد وتمسك بدعوته وناظر وجادل وأقام الحق على خصمه من القرآن الكريم والسنة النبوية وأقوال الصحابة . وألجمه وانتصر عليه فى النهاية ، وهذا هو ثمرة الإخلاص فى الدعوة إلى الله تعالى .

لقد كان الشافعى قويا فى مناظراته متمكنا فيها ، أوتى فهما عميقا ولسانا فصيحا ، وصوتا مؤثرا يعرف كيف يرد على خصمه . يعطى لكل ذى حق حقه ويعرف لكل واحد قدره ، عرف عنه إخلاصه للحق وتفانيه فيه ، فإذا اختلف إخلاصه للحق مع عزيز عليه آثر الحق على الصديق ولو كان شيخه أو أستاذه ، وهكذا بالنسبة للداعية لابد أن ينتصر للحق دائما . وأن يكون مع الحق ضد الباطل ، حتى ولو كان مع أقرب الناس إليه ، والقدوة فى ذلك الرسول صلى الله عليه وسلم عند ما عارضه أقرب الناس إليه فلم يتأثر بذلك بل سار فى طريق دعوته وانتصر للحق أينما كان .

والله الموفق ؟

---

(١) الحلية لأبى نعيم جـ ٩ ص ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ بتصرف .